يوسف السباعي

أديب عاقر السياسة وقتلته

- كتب أول قصة وعمره ١٧ سنة.. وتأثر طوال حياته بموت أبيه.
- ٢١ مجموعة قصصية و ١٥ رواية و ٤ مسرحيات وأدب رحلات وسيناريوهات أفلام عدة.
- تزوج بابنة عمه وظلت أمه تعتبره طفلاً مهما كبر.
- أديب رومانسي وسياسي بارع.

مازال المثقف فى العالم العربى، حالة تمارس السياسة، وكان يمارسها بانغماس أكثر، فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وسنوات التحرر من الاستعمار.

وكان يوسف السباعى من المثقفين، الذين أدركوا حرفة الأدب، ومارسوا السياسة، ولقى حتفه بسببها أيضًا، وهو الذى عُرف بأسلوبه الناعم، والرقيق فى الكتابة، خاصة عندما يكتب عن شؤون وشجون القلب.

وُلد الأديب والسياسى والروائى يوسف السباعى، فى العاشر من يونيو (حزيران) ١٩١٧م، فى حى الدرب الأحمر، أحد أحياء القاهرة الشعبية، لوالد كان أديبًا معروفًا من رواد النهضة الأدبية الحديثة فى مصر، وهو المرحوم محمد السباعى.

حصل يوسف السباعى على «البكالوريا» فى القسم العلمى سنة ١٩٣٥م، من مدرسة شبرا الثانوية، والتحق بالكلية الحربية، وتخرج فيها عام ١٩٣٧م، وبدأ عام ١٩٤٠م التدريس لطلبة سلاح الفرسان فى الكلية الحربية، وأصبح مدرسًا للتاريخ العسكرى فى الكلية ذاتها، عام ١٩٤٣م، وأخيرًا مديرًا للمتحف الحربى عام ١٩٤٩م.

موت الوالد

كان يوسف فى الرابعة عشرة وأكبر إخوته، عند وفاة والده، وكانت تلك ضربة قاصمة لحياته وأحلامه ومستقبله، كما خطط، وانتقلت الأسرة إلى حى السيدة زينب بعد وفاة الأب، وظل هذا الحدث محفورًا فى حياته وأدبه، فكتب عن الموت بالكثرة والتنوع واللوعة، التى عرفت عنه، ولم يصدق أن آباه قد مات، وتخيل أنه غائب وسوف يعود إليه، ليكمل الطريق معه، وظل عامًا كاملاً

فى حالة نفسية مضطربة، ولهذا كان يوسف محبًا للحياة، يريد أن يعيش، حتى لا يقع ابنه «إسماعيل» في تجربة موت الوالد.

يوسف و«صاحبة الجلالة»

درس يوسف فى مدرسة شبرا الثانوية، وكان يجيد كتابة القصة والمقال والزجل والشعر، وامتدت مواهبه إلى الرسم والكاريكاتير، وبدأ يعد مجلة يكتبها ويرسمها، وتحولت إلى مجلة للمدرسة، بعد أن أعجبت الإدارة، وأصبحت تصدر باسم «مجلة مدرسة شبرا الثانوية»، ونشر فيها عام ١٩٣٤م أول قصة كتبها، وكان عنوانها «فوق الأنواء»، ولإعجابه بها أعاد نشرها سنة ١٩٤٦م، فى مجموعته القصصية «أطياف»، وكانت قصته الثانية بعنوان «تبت يدا أبى لهبت وتب». ونشرها له «أحمد الصاوى محمد»، عام ١٩٣٥م فى مجلة «مجلتى» التي كان يصدرها، ظهر اسمه إلى جانب الدكتور «طه حسين»، وغيره من الأسماء المعروفة، ونشر بعض قصصه فى مجلة «المجلة الجديدة»، التى كان يرأس تحريرها المفكر «سلامة موسى».

مشوار العمر

حصل عام ١٩٥٢م، على دبلوم الصحافة من جامعة القاهرة، وأنشأ «نادى القصة» مع إحسان عبد القدوس، وجمعية الأدباء، ونادى القلم الدولى، واتحاد جمعيات الأدباء عام ١٩٥٣م، وانتخب سكرتيرًا عامًا لكل منها، ورأس فى الفترة من «١٩٥٣ ـ ١٩٥٨م» تحرير مجلة «الرسالة الجديدة»، وعُين عام ١٩٥٦م، سكرتيرًا عامًا للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، وعين عام ١٩٥٧م، سكرتيرًا عامًا لاتحاد الكتاب الأفريقيين والآسيويين، حيث اهتم بإصدار مجلة «لوتس ـ الأدب ـ الأفريقى الآسيوى»، ورأس تحريرها، وكان الهدف من هذه المجلة، هو التعريف بالآداب الأفريقية والآسيوية، وتحرير الثقافة الأفريقية الآسيوية من سيطرة الفكر الاستعمارى. وفاز سنة ١٩٥٩م، بجائزة وزارة الثقافة والإرشاد القومى، عن أحسن قصة، لفيلم «رُدَّ قلبى»، وأحسن

سيناريو لفيلم «الليلة الأخيرة»، وعين سنة ١٩٦٠م عضو مجلس الإدارة المنتدب فى مؤسسة «روز اليوسف»، للصحافة والنشر، ومُنح سنة ١٩٦٢م وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، ومُنح عام ١٩٦٣م وسام الاستحقاق الإيطالى من طبقة «الفارس الأعظم».

وعين سنة ١٩٦٧م رئيسًا لتحرير مجلة «آخر ساعة»، كما أسهم فى إنشاء دار الأدباء، وعين سنة ١٩٧١م رئيسًا لمجلس إدارة «دار الهلال» ورئيسًا لتحرير مجلة «المصور»، وعين سنة ١٩٧٣م وزيراً للثقافة، ومُنح سنة ١٩٧٤م جائزة الدولة التقديرية فى الآداب، وتنازل عن التقدير المادى، مكتفيًا بالتقدير الأدبى، وتولى عام ١٩٧٦م رئاسة مجلس إدارة «الأهرام» ورئاسة اتحاد الإذاعة والتليفزيون، واستمر فى رئاسة تحرير جريدة الأهرام حتى وفاته.

رحلته مع الأدب

كان السباعى يؤمن بأن للأدب دوراً كبيراً فى التمهيد للسلام فى مختلف العصور، ولم يكتب من خلال نظرية فنية أو سياسية، وبدأ رحلته مع الأدب مبكراً، وعمره لم يتجاوز السابعة عشرة، حيث نشر أول إنتاجه، ولم ينعزل السباعى بعشقه الأدب عن مجتمعه فى برج عاجى، لكنه انخرط فى الحركة الوطنية، التى كانت تموج بها مصر آنذاك، ففضل أن يعمل فى السلك العسكرى، وانفعل بقضايا الوطن، فكان إبداعه الأدبى يسير جنبًا إلى جنب بجوار عمله السياسى، فكتب «جميلة بوحريد» تمجيدًا للثورة الجزائرية، وكتب «ابتسامة على شفتيه»، حول معركة الكرامة فى الأردن، و«طريق العودة» دفاعًا عن قضية فلسطين، وعُرف السباعى بغزارة وعمق الإنتاج، فكتب إحدى وعشرين مجموعة من القصص القصيرة، وخمس عشرة رواية وأربع مسرحيات، كما كتب فى أدب الرحلات وفى النقد والعلوم الاجتماعية، وكتب عدداً كبيراً من سيناريوهات الأفلام، وفى أعوامه الأخيرة بدأ يعيد طباعة كل مؤلفاته فى طبعات شعبية رخيصة الثمن، وقد حفلت مؤلفات السباعى بالمواقف الإنسانية،

وتنوعت أعماله بين الرومانسية والواقعية، والاجتماعية والتاريخية، وكتب كل مؤلفاته من واقع الحياة، التى عاشها وعاصرها. وعبَّر فى «السقا مات» عن نفسه وعن أحزانه الدفينة، عندما مات أبوه، حيث رسم فيها الأحياء الشعبية التى عاش فيها فترة طفولته وصباه، وأرَّخ لتطور المجتمع المصرى وواكب قضاياه، فكتب «رُدَّ قلبى» مصوراً حال مصر فى الأربعينات من القرن العشرين، ومؤرخًا لتأهب الثورة وتأهب الشعب ضد الاستبداد، وكتب «نادية» التى تتناول العدوان الثلاثى على مصر، «وجفت الدموع» عن الوحدة المصرية السورية، و «أقوى من الزمن» عن قصة تشييد السد العالى، و «العمر لحظة»، التى تتناول رفض المصريين هزيمة يونيو ١٩٦٧.

رومانسية

كانت مؤلفات السباعى، تعبِّر عن المواقف الإنسانية، وتنوعت أعماله بين الرومانسية والواقعية والاجتماعية والتاريخية، إلاّ أنه كان يفتخر دائمًا باتهام النقاد له بالرومانسية، لأنه الكاتب الوحيد، من بين العديد من الكتاب أمثال إبراهيم المازنى ومصطفى لطفى المنفلوطى ونجيب محفوظ، الذى ظل مخلصًا للرومانسية زهاء ربع قرن، من دون أن تخفت حدتها فى رواياته وقصصه القصيرة.

ولا تخلو جميع قصصه وروياته من بعض الملامح الرومانسية، بدءًا من «نائب عزرائيل» وانتهاء برواية «العمر لحظة»، وبداية من مجموعته القصصية «أطياف» وانتهاء بمجموعة «ليال ودموع»، وتُمثل بعض الروايات اتجاهًا متميزاً فى أدب السباعى الرومانسى، ومنها «إنى راحلة»، و «بين الأطلال»، و«فديتك يا ليلى».

فى بيته

كان يوسف السباعى، محبًا لوالده، سائراً على درب حياته الثقافية، ومحبًا لولده إسماعيل، وكان أبوه «محمد السباعى»، محبًا لأولاده، يوسف ومحمود وأحمد، ويقول يوسف بكل الود عن أمه: «كانت أمى تراني طفلاً مهما كبرت،

تسأل دائمًا عن معدتى مليانه ولاّ فاضية، كانت مهمتها أن «تعلفنى» وكانت دموعها أقرب الأشياء إليها». كان يوسف يرى فى أبيه مثقفًا وفنانًا بوهيميًا، وتزوج يوسف بابنة عمه «طه»، ورزق منها بابنته «بيسة»، وابنه «إسماعيل». وتقول بيسة: «كان أبى يخصص جزءًا من وقته للحديث معنا، ويعاملنا وكأنه فى نفس عمرنا، بصورة تلقائية جميلة، وكان يشاركنا أحيانًا، اللعب وكان يشجعنى على أن أقرأ له».

ويقول إسماعيل: «كان والدى بسيطًا فى معاملة الناس، ويعبر عن أحلامهم فى رواياته، وكان قريبًا منا وصديقًا، ولم يكن قاسيًا علينا، إلاّ عندما يحس بالقلق، وقد أوصانى بحُسن معاملة زوجتى وباحترامها».

نادى القصة

يُعتبر نادى القصة إحدى أهم المؤسسات الثقافية، التى اضطلعت بدور مهم ومؤثر فى مصر فى نصف القرن الأخير، وترجع فكرة إنشاء النادى إلى يوسف السباعى وأحسان عبد القدوس. وضم النادى عددًا من كُتّاب ومفكرى وأدباء العصر، منهم نجيب محفوظ، وطه حسين، الذى عرض عليه السباعى رئاسة النادى، وأمين يوسف غراب، وصلاح ذهنى، ومحمد فريد أبو حديد، وعبد الرحمن الشرقاوى، وتوفيق الحكيم، وعبد الحميد جودة السحار، ومحمد تيمور، وكان مقر النادى فى جزء من شقة المخرج جمال مدكور، فى ميدان التحرير، وانضم إليه بعد ذلك، سعد مكاوى، ومصطفى محمود، وثروت أباظة، ويوسف جوهر، ويوسف الشارونى، ولعب النادى دورآ مهمًا فى إثراء الحياة الثقافية المصرية، فى ذلك الوقت، وأصدر سلسلة «الكتاب الذهبى»، وصدر العدد الأول منها فى شهر أبريل ١٩٥٢م، وكانت رواية «إبراهيم الكاتب» لإبراهيم عبد القادر المازنى، وكان الكتاب الثانى مسرحية «وراء الستار»، ليوسف السباعى، والكتاب الثالث «خان الخليلى»، رواية لنجيب محفوظ، وتحملت دار روز اليوسف عملية النشر، وكان يُطبع من الكتاب ثلاثون ألف نسخة. ولما علم

الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، بمكانة هذا النادى، تم اختيار موقع جديد له، وهو المقر الذى يشغله النادى الآن فى «٦٨ شارع قصر العينى، فى القاهرة». وكبر نشاط نادى القصة، وأعد مسابقة للقصة القصيرة، وأخرى للقصة الطويلة، وأصدر مجلة «القصة».

معارك نقدية

كما أن لكل كاتب قلمًا يعبّر به عن قضيته، فإن لديه معركة يخوضها من أجل قلمه وقضيته. ومن أهم المعارك التى خاضها يوسف السباعى، معركته ضد محمود أمين العالم، وعبد العظيم أنيس، عندما أصدرا كتابهما المشترك «فى الثقافة المصرية»، الذى يتهماز فيه يوسف السباعى، بأنه من كُتَّاب «البرجوازية» وخاض معركة أخرى، ضد الدكتور عبد القادر القط فى كتابه «الأدب المصرى المعاصر»، الذى يعرِّفه مؤلفه، بأنه دراسة تطبيقية لمشكلات معاصرة فى الأدب والثقافة فى مصر، ويتناول فيه السلبية فى القصة المصرية، من خلال أعمال يوسف السباعى ومحمد فريد أبو حديد، ومحمد عبد الحليم عبد الله.

المأساة الفلسطينية

أبدع السباعى أكثر من قصة قصيرة ورواية، عن المأساة الفلسطينية، فكتب «ابتسامة على شفتيه» ورواية «طريق العودة»، التى كان الوعى العربى فيها بالقضية الفلسطينية، يتمركز فى الاكتفاء المجرد بالزراية بإسرائيل.

وإذا انتقلنا إلى أعمال السباعى الروائية، وجدنا فارقًا بين «طريق العودة»، التي تبدأ أحداثها فى خريف سنة ١٩٤٨م، قبيل المعارك التى انتهت بها عمليات النضال الأولى فى فلسطين، و«ابتسامة على شفتيه»، التى تتناول أشتداد حركة المقاومة الفلسطينية، خاصة بعد هزيمة العام ١٩٦٧، التى ضاعفت من ثقل المأساة، والجهود التى تبذل لاسترداد الأرض العربية.

ويرى السباعى، من خلال إحدى رواياته، أن المواطن الفلسطينى نفسه، هو حجر الأساس فى تغيير الواقع واستعادة الأرض العربية، فالثرثرة لا تصنع شيئًا

والسلاح وحده، هو الذى ألغى حكاية الأمر الواقع، ليس بالنسبة إلى العدو فحسب، بل بالنسبة إلى العرب أنفسهم، من يؤمن بالقضية ومن لا يؤمن بها. وعبَّر السباعى عن ذلك فى قصته «ابتسامة على شفتيه»، على لسان إحدى شخصياته، وهو «عمار» الذى قال: «عندما نمسك السلاح ونقاتل سيعرف العالم أننا لا نطلب حسنة».

المشهد الأخير

وجاء حادث اغتيال يوسف السباعى فى قبرص، وكأنه مشهد درامى فى إحدى قصصه ورواياته، ولكنه لم يكتبه بقلمه. وكان قد تلقى تهديدات بالقتل قبل سفره، لحضور مؤتمر منظمة التضامن الآسيوى الأفريقى، لكنه لم يستمع لها.

ومات السباعى بالرصاص، وهو يتفقد بعض الكتب فى بهو فندقه القبرصى، فى الثامن عشر من شهر فبراير ١٩٧٨م، ودفع حياته ثمنًا لمبادئه وسعيه من أجل السلام، وكانت الرصاصات التى قتلته رصاصات شاب قتله باسم الدفاع عن القضية الفلسطينية، ولم يعرف ذلك الشاب، كما يبدو، أن هذا الرجل يعد أكثر الأدباء

فى عيون مفكرى عصره

قال الروائى والكاتب إحسان عبد القدوس: «كان السباعى بالنسبة إلىّ رمزًا لكل ما ينقصنى، بل إنه حمل عنى فعلاً، أكثر من مرة، مسئولية تكملة هذا النقص، لقد كان متفائلاً دائمًا فى أحاديثه، كل شئ سهل، وكل مشكلة لها حل، وكل مشروع يمكن بناؤه. لقد كنت ألجأ إليه كلما فقدت أعصابى، لمجرد أن أجلس إليه ونتحدث».

وقال عنه نجيب محفوظ: «إن يوسف السباعى هو «جبرتى العصر»، فقد سجل بكتاباته الأدبية أحداث الثورة، منذ قيامها حتى بشائر النصر فى حرب أكتوبر المجيدة. من أعماله «رد قلبى»، «جفت الدموع»، «ليل له آخر»، «العمر لحظة»، «أقوى من الزمن». سوف يعيش دائمًا، بطلعته البهية المنيرة، وابتسامته المشرقة بلقاء الأصدقاء، وسوف يذكره إخوانه فى المهنة، فهو الذى أنشأ لهم نادى القصة، وجمعية الأدباء، واتحاد الأدباء، وغيرها من منارات أدبية لم يخفت ضوؤها».

ويقول توفيق الحكيم: «سهل عذب، باسم ساخر».

وأطلق عليه توفيق الحكيم لقب «رائد الأمن الثقافى»، وذلك بسبب الدور الذى قام به فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، ونادى القصة، وجمعية الأدباء.

وقال الكاتب أحمد أبو الفتح: «لم أصادف فى حياتى ليوسف السباعى عدوًا، كان صديق كل إنسان، باسمًا فى وجه كل إنسان، متلطفًا كريمًا مع كل إنسان».

العرب لا المصريين فحسب اهتمامًا بالقضية الفلسطينية، ولم يعلم أن للسباعى الفضل، أثناء إشرافه على «منظمة التضامن الآسيوى الأفريقى»، فى حصول منظمة التحرير الفلسطينية، على عدة مكاسب عالمية، منها مقعد دائم، فى السكرتارية الدائمة للمؤتمر. وكان السباعى هو الذى رتب أول دعوة لياسر عرفات لزيارة إحدى القوتين العظميين فى العالم فى ذلك الوقت وهى موسكو.

إلى الحمير الكبار

برز أسلوب السخرية في كتابات السباعى، سواء على شكل قصص أم مقالات أم روايات، من ذلك إهداء كتابه « يأ مة ضحكت» بهذه الكلمات:

« إلى الحمير الكبار. .

أهدى كتابى هذا، فمنهم استلهمت وحيه، واستوحيت حكمته، ليتهم يقبلونه ويقرأونه ويفهمونه، ثم يستحون ويعقلون ويندمون على ما يفعلون.

أيها الكُتاب. . ألا هل بلغت؟